فى التربية والتعليم

واجب المعلمين والحكومة والكتاب – ٢

للأستاذ محمد مصطفى الماحى

مدير الإدارة بوزارة الأوقاف

المسألة الثانية : مسألة المدرسين ومن فى حكمهم فلا شك أنهم مطالبون بالاهتمام بتأديب الأطفال وتهذيب غرائزهم وتوجيه الأساليب لتغذية نفوسهم بما ينمى فيها الخلق الكريم والملكات العالية ؛ فلا تكون العناية موجهة وحدها إلى شحن أذهانهم بالعلم وإلى جعلهم طبلا منفوخا يدوى إذا ضرب دويا شديدا فاذا مزقته لم تجده شيئا .

حقا إن واجب المدرسين قبل العناية بالعلم بذاته أن يعنوا بأدب الأطفال وأن يأخذوا فى دراسة الأساليب التى تخلق منهم شبابا يجمعون إلى نشاط الشباب وحمية الفتوة قوة التمييز فى الأخذ بالنافع وترك الضار .

أنا لا أنكر أن فى مدارسنا مدرسين فضلاء أخذوا من العلم بأقوى سبب وانطوت صدورهم على أشرف العواطف وأنبل المقاصد وانصرفوا إلى الإخلاص فى عملهم والجد .

ولكن لا يليق بى أن أنكر أن فى بعض أساليب التهذيب التى يجرى عليها البعض منهم مالا يتفق ومهمة تهذيب النفوس تهذيبا صحيحا محققا للغاية المرجوة .

لا أريد أن أتغلغل فى عمل فنى من أخص أعمال المدرسين ؛ ولكنى أمس بصفتى والد التلاميذ فى المدارس وصديقا لآباء الكثير من هؤلاء التلاميذ جانبا من الضعف الذى يجب أن نعمل جميعا على تلافيه وتنبيه الأذهان إليه خدمة لوطننا بل لأنفسنا .

إن كثيرا منهم يعمل كصانع عهد إليه بسبك حلية أو نسج قطعة من القماش كل همه أن يتم صنعها ليفرغ منها ويستريح . فأما لذة الافتنان فى العمل التى تدعوه إلى انتقاء أجمل الصور لسبك حليته وتخليص عناصرها من كل زغل وتصفيتها من كل شائبة . أما ابتداع رسوم وصور مشوقة لنسج قطعته وجعلها من الطراز الأول فذلك مالا يهتم له .

وقد يكون له عذره عند نفسه إنه لا يوفى ما يراه حقا له من رقى وتقدير ، ولكن لو

أن مثل هذا الأخ المدرس التفت إلى أن فى عمله ناحية تقتضى التضحية وتستوجب الاقتصاد فى حقوقه الذاتية ، وإلى أن شأن المعلم منذ خلق شأن السراج يضىء للناس وهو يحترق ، لوجد من حسن القيام بالواجب وطمأنينة الضمير إلى هذا الأداء خير عوض لما قد يفوته من تقدير ورقى ، هذا إلى أن ما يناله من سعادة كلما رأى النجاح فى الحياة من نصيب تلاميذه ، وكلما رأى ثمار غرسه زينة الدنيا وبهجة الجيل ، فليقبل إذن على عمله راضيا ، وليعلم أن المال والجاه ليسا وحدهما طريق اللذة والنعيم فى دنيانا هذه ، فإن اللذة الخالصة والسعادة الكبرى فى القيام بالواجب على أتم صورة وأكملها .

والمسألة الثالثة : واجب ولاة الأمور على معنى أشمل ، فالحكومة أول من يطالب بحماية الطفولة والعمل على توجيهها إلى النواحي الطيبة والميول الكريمة .

ولعل خير ما تعمله الحكومة فى هذا السبيل أن تسن من التشريعات ما يهذب نفوس الأطفال ويهديء من نزعاتهم ولنكن أصرح من ذلك قليلا .

أنتم ترون أن بلادنا تتقدم نحو المدنية بخطى واسعة ، حتى لقد أصبحت القاهرة والأسكندرية وبعض المدن الأخرى تضارع الحواضر والمدن الأوروبية ، وتيار المدنية بحسناتها وعيوبها يكاد يجرفنا ، فإن لم تكن هناك قوة حيوية ودعامات متينة تخفف من شدة هذا التيار فماذا تكون النتيجة إلا أن يجرفنا إلى حيث لا أمن ولا سلام ؟

بين حين وآخر تفتح فى مصر وغيرها دور للصور المتحركة تستقبل من شاء أناث ورجال وشباب وأطفال . وإن صح أن بها جانبا من الخير فيما تقدمه من التسلية وفيما تتضمنه بعض القصص التى تمثل فيها من الدروس التحليلية للعواطف الانسانية ، فإن هذه القصص نفسها تحمل فى طياتها دوافع للشباب على العبث والفتنة ، بل إنها لتنبه من غرائزهم الجنسية وتحيى من عواطفهم وميولهم ما يبرز كامن شهواتهم فى مظاهرها الجامحة التى تتغلب فيها على العقول ، ويتعذر فيها كبح هذا الجماح .

أفليس من الواجب إذن أن يسن تشريع يحمى الطفولة من عبث هذه الدور ؟

لسنا أول من فكر فى هذا ، ففى البلاد الغربية التى هى منبع المدنية الحديثة حرم على الأطفال فى سن مخصوصة أن يلجوا أبواب هذه الدور إلا إذا كانت المشاهد التى تعرض خلقية تهذب النفوس وتصرفها إلى جانب الخير وتكسبها نشاطا جديدا لأتقان العمل ودقة التفكير وجودة الرأى .

بل لقد أخذت البلاد الشرقية التى تلاحق مصر فى الرقى بهذه المبادئ السامية ، وهذه فارس قرأنا عنها بالأمس القريب أنها وضعت تشريعا يمنع دخول الأطفال ما بين الخامسة والخامسة عشرة دور السينما .

إذن فمصر جديرة بأن لا تتأخر عن غيرها من الأمم الغربية والشرقية فى هذا المضمار .

وإذا كانت الحكومة قد اهتمت بوضع تشريع لحماية الأحداث فى دور العمل لضمان

عدم استغلال قواهم مما يؤدي إلى اضمحلال أجسامهم ، وإذا كانت الحكومة قد كفلت بعنايتها مشروع مصايف الأطفال ، فهاتان الناحيتان على ما يستحقان من شكر، قد لا تكونان أجدر بالعناية من تهذيب النفوس ومحاربة نزعات الغواية وعوامل الشر التي تنضح بها تلك المشاهد الضارة والتي تتسرب من المدن والحواضر إلى الأقاليم، فتطغى على نفوس الأبرياء من الناشئين ولا تزال بهم حتى تبلغ بهم الحضيض.

ما ذكرته عن دور السينما ينطبق على المسارح ومحال اللهو ومشارب الخمر فكل هذه مهلكات لأولادنا ، قاتلات لنزعة الشرف ، باعثات للفتنة من مراقدها .

لا تقولوا إن مثل هذا الواجب أجدر أن يقوم به الآباء والأمهات باعتبارهم مسئولين عن رعاية أبنائهم . فهذا حق إلى حد ما ، قليل الأثر من الوجهة العملية ولا سيما أن الأمية لا تزال متفشية فينا إلى أكبر نسبة . ومثل هذه الحرب التي أدعو إلى شنها على هذه الدور أحوج ما تكون إلى تشريع ينظم ميدانها ويلزم كل إنسان حده ويفتح عين كل والد ووالدة على الحقيقة المرة التي لا يحسها إلا بعد فوات الأوان وتعذر الإصلاح .

كما أن على الحكومة واجباً آخر هو مكافأة العاملين لتربية النشء وحفزهم الكتاب إلى مزاولة هذا العمل الجليل بالتشجيع الأدبي والمادي حتى إذا وجد الكاتب أن عمله مقدور أحسن القدر وأنه يجزى عليه خير الجزاء اشتدت همته في الإجادة وتنافس العاملون في سعيهم وليس ذلك بقليل في بناء صرح عال من أخلاق الأمة .

أما المسألة الرابعة، فهي ما يجب على كتابنا وأدبائنا من القيام بنصيبهم في إمدادنا بما يثقف عقول أطفالنا ويهذب نفوسهم، وهي ناحية على ما لها من الخطورة والأهمية كان الكتاب إلى عهد غير بعيد لا ينظرون إليها نظرة جد ولا يوجهون إليها أقل عناية .

ويمكننا أن نحدد مراحل الطفولة بأربعة مراحل :

الأولى: من مولد الطفل إلى نهاية السنة الثالثة، وهي مرحلة لا يعدو الطفل فيها أن يكون دمية تتلقفها الأيدي وتنطبع على وجنآته قبلات الحنان وتتجه إليه نظرات العطف والإشفاق وكلمات التدليل والتحبب . فليسعد الطفل بهذا العهد الجميل اللذيذ ولنحمد الله على أن مداركه لا تذكر من لذائذ هذا العهد شيئاً، وإلا لفضل ألا يتخطى هذه السن إلى ما في الحياة من آلام ومتاعب ، لتدعه يمرح في جو ملائكي بديع ترفرف عليه براءة الطفولة وطهارة النفس ونقاء السريرة، ولننتقل إلى المرحلة الثانية ، وهي من نهاية الثالثة إلى السادسة، وهي أول ما يهمنا من دراستنا هذه فهذا الطور هو الذي تبدأ فيه مدارك الطفل تكوينها فيأخذ في الانتباه إلى ما حوله قليلا قليلا ويميل فيه إلى نوع من الخيال، ويعمل حب التقليد والمحاكاة عمله في نفسه ، فالطفل في هذا الطور لا ينظر إلى مصاعب الحياة كما ينظر إليها بعد إذ يشتد ساعده وينمو إدراكه ولو خليت بينه وبين القطار العظيم والطائرة الضخمة لوجدته مندفعا إلى العبث بأعلامها وصماماتها يتمنى أن يوفق إلى أن يسير أو يطير . فخياله يرمي به إلى استسهال الصعب

وتذليل المستحيل ، فاذا أضفنا إلى هـذا مافى الطفل من ميل غريزى إلى التقليد والمحاكاة عرفنا أن هذه المرحلة شديدة الأثر فى تكوينه وتركيز مداركه ، وهو فى هذه المرحلة شديد الاشتياق إلى سماع القصص الغريبة التى تنطوى على العجائب وتتضمن أنواعا من البطولة وصنوفا من الأعمال لا تقع تحت حسه ولا يشعر بوجودها فيما تقع عينه عليه فى بيئته ولا تصل إلى سمعه فيما يصل إليه من أحاديث أهله وأقاربه .

فاذا انطوت هذه المرحلة ودخل الطفل فى المرحلة الثالثة بين السادسة والثانية عشرة وهى السن التى يتعلم فيها الطفل القراءة والكتابة ويستطيع أن يميز إلى حد ما الخبيث من الطيب ؛ كما يستطيع أن يحرك عقله فيميز بين مايصح تصديقه من الحكايات والقصص وبين مالا يصح تصديقه إذ يكون قد وصل إلى حد يفهم فيه قوى الانسان على مايقرب من حقيقتها، ويعرف فيه أن مايراه من عجائب الفن وبدائع الاختراع لا يرجع إلى قوى خفية مستورة عن عيون البشر وأفهامهم ، وإنما يرجع إلى العلم والتفكير .

ولعل هذه المرحلة أخطر مراحل الطفولة ؛ فان مايطبع فى عقل الطفل فيها من الصور وما ينفذ إلى ذهنه من المعلومات وتتأثر به حواسه من المشاهد والعقائد ، لا ينتزعه منه منتزع ولو تضافرت قوى التعليم والتهذيب ، لذلك كان واجبا أن تبذل أقصى العناية ليكون مايقرأه الأطفال فيها نافعا لهم ، مقوما لأخلاقهم ، منشئا فى نفوسهم روح البطولة ، دافعا بهم إلى حب الاستقصاء والاستطلاع ، باعثا لهم على الاعتماد على النفس والرغبة فى الكمال ، مرهفا أذواقهم ، متوجها بها إلى دقة التصوير والملاحظة .

وبعد هذا السن ينتقل الطفل إلى طور المراهقة وفيه تتحدد ميوله وينصرف إلى حظه من الحياة إما فى طريق الخير أو فى طريق الشر .

ولا يستطيع أن ينكر عاقل أن المرحلتين السابقتين لهذا الدور هما الأساس لتحديد ميول الطفل وانصرافه إلى أحد الطريقين ، فاذا شذت من ذلك شواذ بأن حسن تمهيد الطفل تمهيدا كان من شأنه أن يوجهه إلى الخير ثم تبين انصرافه إلى الشر فلعل ذلك راجع إلى عوامل أخرى من البيئة وغيرها يحتاج إلى التقصى لاستكناه حقيقته .

ولست أجحد هنا ما كشفه العلم من تأثير الوراثة فى الأخلاق والعادات ، ولكن أليس من المتفق عليه بين علماء التربية أن العناية بتهذيب الغرائز فى النفس الانسانية والعمل على بث الفضائل والأخلاق الكريمة فيها هو أفضل الوسائل لايجاد الانسان الكامل ؟ :

ولسنا نقصد بالأخلاق تلك الآداب العامة التى تدعو إلى الحكم لصاحبها بكمال آدابه ، وإنما نقصد تلك الغريزة النفسية التى تماثل الذكاء والعقل وغيرهما من الغرائز القابلة للتنمية والكفيلة بأن تخلق فى النفس الداخلية روحا قوية كريمة تصلح لأن تكون أساسا متينا تبنى عليه تجارب الحياة ومشاهدها وملاحظاتها بناء شامخا يصعد بصاحبه إلى ذروة المجد والسعادة ،

الغــــــــاية ...

للأستاذ أحمد فؤاد الأهوانى
أستاذ علم النفس والتربية بالمدارس الثانوية

إننا نسير على غير هدى ونتجه إلى غير غاية ، ونتعثر فى مشيتنا ، ونتخبط فى سيرنا ، ونهيم على وجهنا فى جميع الطرقات ، كالذى يخرج من منزله وهو لا يدرى أين يذهب ، فلا يزال يدخل فى شارع ويخرج من زقاق ، وينعطف إلى حارة وينصرف من درب ثم يعود كما بدأ ، وهو لا يعلم أين ذهب ومن أين جاء ، ولا يزال هكذا حتى يقضى الله به أمراً أو يفطن لنفسه فيفكر فى شأنه ويرسم وجهته التى يريد .

هكذا أمرنا فى مدارسنا التى يتلقى فيها أبناؤنا العلم . أهى مجرد دروس تلقى ، وطلاب يستمعون ، ومدرسين يتشدقون ويجدون ؟ أم نقصد من هذه الدروس غاية معينة وهدفا مقصوداً ؟

ذلك ما نريد أن نبينه فى صراحة ، حتى نعرف عيوبنا ونرسم خطة الإصلاح . ولعلك تقول : وهل فى مدارسنا عيوب ؟

كلها عيوب وذنوب ، تشهد بذلك النهاية السيئة المحزنة التى ينتهى إليها المتخرجون كل عام ؛ إذ يتسكعون فى جميع الطرقات ، ويستحيلون إلى فئة العاطلين ، فيضيفون إلى الأمة الضعيفة المريضة ، أعضاء ميتة لا حياة فيها ، وتعيش متطفلة على حساب الشعب المسكين . يشهد بذلك تغيير المناهج كل آونة وأخرى ، ولعلك لا تنسى أن المنطق يفرض علينا أن نلقى فى بالنا أن المنهج الجديد يلغى المنهج القديم للعيوب القائمة فيه ، فتغيير المناهج دليل على فساد الأمر ، وكثرة تغيير المناهج دليل على شدة الفساد . ويشهد بذلك وزير المعارف الجديد إذ امتحن بنفسه بعض المتخرجين فى المدارس الأولية ليعرف مبلغ ما وصلوا إليه من العلم ، ونهاية النور الذى أزال جهلهم وعماهم فاذا بهم كما كانوا لم يتقشع جهلهم ، ولم يزدهم العلم نوراً ، بل قل إن هذه القشور التى جملت من هؤلاء الفلاحين أشباه متعلمين وما هم بمتعلمين ، قل إنها أدت وستؤدى — إن لم يصلح الحال — إلى نتائج شديدة الخطر .

ولكنى لا أريد أن أطعن على التعليم الالزامى وحده ، فقد يكون التعليم الابتدائى ، أو التعليم الثانوى لأنى شديد الصلة به ، أشد من التعليم الالزامى فساداً ، والواقع من الأمر هو أن التعليم الثانوى لا يؤدى وظيفته تأدية حقة سليمة ، وفى حاجة إلى كثير من الاصلاح والتغيير .

فى كل ناحية من نواحى التعليم يلقاك الفساد والغضب والعبث والخلل ، ولا يصلح أن تنظر إلى كل ناحية على حدة ، فهناك عامل مشترك بين نواحى التعليم جميعا هو الذى يفسدها ويضيع الفائدة المطلوبة من العلم ، ويلغى جهود الوزارة والنظار والمدرسين والطلبة .

ذلك أن الطلبة لا يألون جهدا فى العمل المضنى ، وهم — كما يطلب إليهم — لا يحركون ساكنا ولا تسمع لهم صوتا ، حتى أنك تدخل الفصل المدرسى فتسمع دبيب الأبرة إذا وقعت على الأرض كما يقولون فى الأمثال والمدرس لا يزال « كالأسطوانة » التى تدور على « الفونوغراف » يسمع الطلبة دروسه وهو مضطر أن يتحدث طول الوقت ، لأنه إذا سكت تكلم الطلبة ، فأما أن يتكلم المدرس أو يتكلم الطلبة ، بل هو مضطر أن يلقى درسه بأعلى صوت حتى يسمع آخر تلميذ فى الفصل ، وحتى لا يتلقى أمثال هذه الملاحظات « مش سامع بابيه » !

فإذا فرغ المدرس آخر النهار جلس إلى مكتبه يصحح الكراسات ، وإذا بالحصة التى استغرقت ساعة من الزمان ، تلزمه ساعتين فى التصحيح ، ثم يخرج المدرس وقد تارت أعصابه وتوترت ، وزاغ بصره لا يدرى أهو من كثرة النظر إلى السبورة والكراسات والكتب أم هو من تطاير غبار الطباشير فى عينيه .

والناظر يتوجه من الصباح المبكر قبل دخول التلاميذ ، ويخرج بعد انصرافهم ، وأعباؤه مضنية ، ومسئوليته كبيرة ، والوزارة تستحثه كل وقت وتدق له أجراس المبرة ، وتبعث له المفتشين ، ولا تزال الوزارة جادة فى عقد المجان ، واستقدام الأخصائيين والخبراء ، وإرسال البيانات والنشرات ، حتى لقد بلغ من كثرة هذه المنشورات الوزارية الخاصة بالدروس والمناهج والامتحانات وشئون التعليم المختلفة ، أن المدرس لا يمضى عليه يوم من غير أن يمضى منشوراً . لقد كره المدرس كثرة ما يضع من إمضاء تارة فى الكراسات وتارة فى المنشورات وفى مستهل كل حصة على أوراق الغياب ، لقد كره المدرس نفسه ، ومقت إمضاءه ، التى قتلتها المدارس دون المضى إلى أروقة المعارف وحبستها الأوراق المدرسية عن النظر إلى « شيكات البنوك » .

فهؤلاء هم الطلبة ، والمدرسون ، والنظار ، وهذه هى الوزارة ، الكل جادون منصرفون إلى عملهم بما يفوق الطاقة والعزم ، لا تستطيع أن تصفهم بالتقصير أو التباطؤ فى العمل ، والنتيجة مع ذلك فساد التعليم فما هو هذا العامل العجيب ؟

هناك عوامل كثيرة متنوعة مختلفة ، ولكنى أعتقد أن عاملا منها هو أقواها وأعظمها أثراً ، وأشدها تشتيتا للجهود إذا انعدم ، وتوجيها للعزائم إذا وجد ، ذلك هو الغاية التى ينشدها من كل هذه الدولة التعليمية ، بما فيها من طلاب ومدرسين ونظار ووزارة ، وقد تختلف

الغايات من بلد إلى آخر ، ومن زمان إلى زمان . فقد كانت غاية العلم فى القرون الوسطى الثقافة ، لأنه لم يكن يتعلم إلا الطبقة الممتازة ، والتى تستطيع أن ترقى إليها . فكان التعليم نوعا من الترف ، ومن العيب أن يكون الشخص جاهلا .

وفى انجلترا حيث الشعب متنقل مستعمر لا يستقر فى مكان ، فأنهم فى حاجة إلى تعليم أبنائهم الاعتماد على النفس كل الاعتماد ، لأنهم حين يشبون سيلقى بهم فى أماكن سحيقة لا صلة لأهلهم بها . وغاية التعليم فى ألمانيا أن يخرج الطالب عالماً بمعنى الكلمة ، ولذا كانت دراستهم أعمق وأعمق من الدراسات الانجليزية ، التى تعنى بالنظرة الاجمالية فقط . أما فى مصر فقد كانت غاية التعليم تخريج موظفين يصلحون للأدارة الحكومية ، ثم أراد القوم بعد الثورة الحديثة أن يخرجوا على الماضى ، وأن يرسموا سياسة جديدة للتعليم ، فتغيرت المناهج بل قل إنها قلبت رأساً على عقب . ولكن ما هى الغاية التى نريد أن نصل إليها من هذا الاصلاح ؟

أنا شخصياً لا أعلم هذه الغاية ، وقد سألت كثيراً من المسئولين فلم أستفد منهم شيئاً ، ثم إنى لم أدخل فى رءوس أصحاب الأمر ، حتى أعلم ماذا يريدون بهذا الاصلاح ، ولكننا نستطيع أن نسوق الحوادث لعلها تنبئنا أو تدلنا على شىء . لقد بدأ الانقلاب فى عام ١٩١٥ ، ومنذ ذلك الحين ونحن نشهد تغييراً يعقبه تغيير ، وتعديلا يتلوه تعديل ، فكيف يتم ذلك ؟ إنهم يستعينون بالنظم الأوربية فى التعليم يستقون منها هذا التعديل ، ويستلهمون الاصلاح والتغيير . وقد فات القوم أن ما وضع لدولة لا يصلح لدولة أخرى ، لا سيما أن ظروفنا الاجتماعية وتقاليدنا الشرقية ، ولغتنا العربية التى تختلف كل الاختلاف عن جميع اللغات الأوربية ، وتاريخنا الذى عمل فى قوميتنا وتركيبت منه حياتنا الحاضرة ، كل هذا يباعد ما بين مصر وبين غيرها من الدول ، فأذا كان لابد من إصلاح فليكن محدوداً بهذه العوامل ، وإذا استعنا بالسياسة التعليمية فى الغرب ، فليكن الغرض من ذلك أن تنير أمامنا السبيل لا أن تكون مثلاً نتبعه طبق الأصل .

هذه الغاية التى نفقدها فى جميع مراحل التعليم فى مصر ، والتى نغفلها إغفالا ، ونبعد عنها وغماً عنا ، والتى يجب أن تلائم مصر فى وقتها الحاضر ، وفى ظروفها الحالية ، هى الغاية الوطنية . ذلك أننا نجتاز ظروفاً سياسية غريبة ، ومن العبث أن نغمض أعيننا فنقول إن سيادتنا أصبحت كاملة ، بل هذه السيادة منقوصة ، وحديث الناس ، وعمل أولى الأمر ، وعناية الصحف التى تمثل الرأى العام ، تتجه كلها إلى الناحية السياسية ، التى تشغل بال الجميع وتقض مضاجعهم . فمن العبث أن تصرف الناس عن الاشتغال بما يشغل بالهم ، وهى

القضية المصرية . يجب أن يكون خير مصر ورفعتها ، هو الهدف الذى يتجه إليه كل مصرى .

يجب أن تكون الغاية من التعليم هى الغاية الوطنية .

فالمدرس يمس فى دروسه بين حين وآخر النواحى الوطنية : حتى يستنهض الهمم ، ويبعث الحياة والنشاط والتطلع إلى العمل وإلى المجد ، وإنك لا تشرع أن تتناول هذه الناحية حتى تجد الأعناق مشرئبة ، والآذان صاغية ، إلى ما ستتناوله بالبحث . فماذا لا تستغل هذه الظاهرة لجذب انتباه الطلاب وتصرفهم إلى الدروس ، وتدفعهم إلى العناية والاهتمام بما يدرسون . والملاحظة الغريبة التى لفتت نظرى طول مدة تدريسى ، هى عناية الطلبة دائما بالناحية السياسية الوطنية فى مصر ؛ فما تعرض مسألة تمس السياسة حتى تجد الأسئلة تنهال ، متعطشين إلى الأجابة ، وكنا نضطر إلى عدم الخوض فى مثل هذه المسائل ؛ خشية الخروج على أوامر الوزارة ، وفى هذا خروج على طبيعة الأشياء ، وذلك هو مصدر الفساد .

ذلك أن المهم فى التربية والتعليم هو اهتمام الطالب بدرسه ، أن يسعى إليه بنفسه لا أن نلقنه له تلقينا ، كما بينا فى مقال سابق .

وإذا كانت مصر الفتية تريد الرقى ، وتسعى إلى النهضة ، فيجب أن تتكاتف الجهود وأن تكون المدرسة هى حصن الوطنية لا أن تكون حربا عليها

فى عام ١٩٣١ ، توجه طلاب معهد التربية العالى فى رحلة ذلك الشتاء إلى الشام وفلسطين ، ومررنا فى طريقنا بجزيرة قبرص ، ومكثنا بأحدى موانئها يوماً ، فزرنا المدارس الموجودة بها زرنا مدرستين إحداها تركية والأخرى يونانية ، لأن أهل الجزيرة قسمان أتراك وإغريق . وحضرت درساً فى التاريخ فى المدرسة التركية وكان المدرس يلقيه باللغة التركية التى لا أفهمها ، ولكنا فهمنا قيمة الدرس من اللهجة التى كانا يلقى بها ، ومن أثر درسه على وجوه التلاميذ . أتظن أنه كان يستنتج الحقائق فى التلاميذ ؟ أو كان يلقى عليهم الأسئلة ؟ أو كان يكتب ملخصاً على السبورة ؟ كلا ، بل كان يخطب فيهم ويثير حماستهم ، ولهجة الخطابة لا تخفى على السامع ، وأثرها لا يخفى على الملاحظ وإنى أعتقد أن درسه كان ناجحاً نجاحاً تاما ، بل كان خالدا فى صدور الطلاب ، ولو أن هذا يخالف رأى أساتذة التربية فى مصر ؛ لأن العبرة ليست بالحقائق النظرية التى تدرس على علاتها فى الكتب ، ولكن العبرة بالنتائج ؛ ولم يقل أحد أن نتائج التدريس فى الخارج كانت فاشلة .

قد يسوء ما أكتب بعض الناس ويؤولونه على غير حقيقته ، ويخرجونه إلى ناحية سياسية ، ولكنى أريد أن يفهم الذين يقرءون هذا أن التوجه إلى الناحية الوطنية ؛ غير الناحية السياسية ؛ فالوطنية شىء والسياسة شىء آخر ، وأولئك الذين يخلطون بينهما

خاطئون . كل الخطأ ، فالوطنية هي فهم نواحي الوطن المختلفة أولا ، تاريخه وزرعه وتجارته وصناعته وأهله وكل مايشمله الوطن ؛ ثم بالعمل لصالح الوطن أو قل التضحية في سبيل الوطن ثانيا . ولكن المصريين أو أغلب المصريين لايعلمون إلا القليل عن وطنهم المحبوب والمثقفون منهم يعلمون عن أوربا أكثر مما يعلمون عن مصر ولذلك أسباب ليس هنا محل ذكرها. والقليل منا من يضحي في سبيل مصر ، بل أكثرنا يعمل لمصلحة نفسه فقط . ويحضرني الآن مثل ظريف على هذه الأنانية التي تسود المصريين ، ولو أنه لايتصل بكثير بالتربية. كنت أتحدث مع أحد الناس لماذا لايتزوج وقد بلغ سنا كبيرة ، بلغ الثانية والأربعين ، وهو في مركز حسن ، وعنده ثروة لابأس بها ، قال إني سعيد بحياتي على هذا النحو وفي الزواج مشاكل ومتاعب أنا في غنى عنها قلت ولكنك لاتتزوج لنفسك ولكنك تتزوج لمصلحة الوطن ، لأنك مثقف ومن الطبقات الممتازة ، فأولادك سيكونون ممتازين ، وهم عماد الوطن في المستقبل ، قال ولكني أسعى لمصلحة نفسي وراحتي الشخصية وليتزوج غيري ، قلت إذن أنت أناني ، قال ليكن ذلك..

هذه الأنانية التي تسود المصريين، حقيقة لاشك فيها ، لذلك تجد كل شخص منا يعمل لمصلحة نفسه ، ويتجه الوجهة التي تعجبه ، ومن هنا تفرقت الجهود ، وتشعبت المسالك التي يسلكها الناس فلا يتفقون على شيء ولا يجتمعون على غاية واحدة ؛ فالقوة فلا تنشأ إلا عن الوحدة ، وسبيل الوحدة في مصر بل في العالم أجمع اليوم هي العمل الوطني ؛ لذلك تجد المثل في ألمانيا « ألمانيا فوق الجميع » وفي انجلترا « ليسلم الملك » والملك عندهم رمز الوطن الانجليزي ؛ وهكذا . . .

لقد تخلت تركيا عن الخلافة والسلطان العريض لتحتفظ بوحدتها ، وتوجه الأتراك وجهة واحدة هي تركيا ، فلماذا نبذل جهودنا عبثا ، ولا نركزها في مصر بكل معنى الكلمة حتى في التعليم . فيكون تاريخنا مصريا ، ولغتنا مصرية ، وأدبنا مصريا ، وتجارتنا مصرية ، وصناعتنا مصرية ؟ إننا إن فعلنا هذا فأننا نضمن اجتذاب اهتمام الطلاب ، وتوحد جهود التدريس في نقطة واحدة تلتقي عندها الجهود ، وتتمتع القلوب ؛ ويصلح جو التعليم فيخرج الطالب ممتلئا حماسة إلى العمل ، وحرارة إلى البذل بنفسه في سبيل مصر وخير مصر ورقي مصر .

أحمد فؤاد الأهواني

مسائل هامة فى التربية

هل المدرسون جميعا يصلحون للتعليم ؟ هـذه هى المشكلة التى حاولنا حلها على ضوء التربية الحديثة فلم نفلح ، بل حاولنا بحثها بكل ما أوتينا من قوة وجهد فكان نصيبنا الفشل التام .

ذلك لأننا نظرنا إليها ورؤوسنا ملأى بالأوهام والخيالات ، ثم بحثناها على اعتبار أنها من المشاكل العويصة التى تستدعى عقولا جبارة لبحثها ودرسها ، وتتطلب خبرة طويلة ومرانا مستمراً للوصول إلى أعماقها واكتناه سرها فكنا كقائد جيش متأهب للقتال ، سمع صوت منبعثاً من مكان قريب فعبأ جيشه وصوب مدافعه وخبأ كل قنابله وراح يبحث عن مصدر الصوت فى حذر واحتياط وهو فى كل لحظة مستعد لاطلاق المدافع وقذف القنابل والتطوح بجيشه فى أتون المعركة ، وراح جنوده هم الآخرون يتأهبون للموت ويشعر الواحد منهم بأن رأسه فى اللحظة التالية سوف تطير من بين كتفيه ، وأخيراً عاد القائد وعاد الجنود وهم أشد مايكونون إيماناً بأن العدو الماكر مايزال متواريا عن الأنظار فيفكرون ثم يفكرون ويدبرون ثم يدبرون ، ولو أنهم استطاعوا أن يعنوا بالأشياء التافهة ، لرأوا السنور الصغير يعبث بأعواد الحطب فيحدث هـذا الصوت الذى علاهم ذعرا ورعبا .

ونحن بالمثل عند ما أردنا أن ندرس بعض نواحى المعلم أو المربى لنفهم ونستطيع الحكم على مقدار صلاحيته لهذه المهنة تذرعنا بالعلم والمعرفة وتسلحنا بالمران والخبرة والنظريات الهائلة ونسينا السنور الصغير .

إن لهذه التربية والتعليم أساسا أوليا يجب أن يتوفر لدينا قبل كل شىء آخر ، مهما أوتينا من صدق وحكمة ، ومهما تلقينا من علوم ومعارف فأنها تنهار جميعا إذا لم يوجد هذا الأساس ، وعندئذ يصبح الشخص عالما أو أديبا أو مثقفا فحسب ، دون أن يكون معلما أو مربيا ، فلا مفر إذن من توفر هذا الأساس وإلا فشل المعلم فى مهنته ، وباء بالاخفاق المحقق

لقد حار المشرفون على التربية والتعليم فى حل بعض المسائل الخاصة بالتعليم ، فأنهم يرون المعلم الجد النشيط يزاول مهنته بأمانة وهمة ، ويلقى درسه فى طائفة من التلاميذ الأذكياء النابهين ، فتكون النتيجة واحدة من ثلاث : نتيجة سيئة لا تتكافأ مع جده ونشاطه ؛ أو نتيجة باهرة ولكنها كاذبة خادعة غير صالحة لانتقال الطالب إلى مرحلة أخرى من مراحل التعليم ؛ أو نتيجة حسنة حقاً لا غبار عليها

يحار المسئولون عن التعليم فى حل هذا اللغز ، والسبب فى حيرتهم أنهم يجهلون الشرط

الأساسي في صلاحية المعلم لأداء هذه المهنة الشاقة ، أو هم يتجاهلونه في بعض الأحيان لأنه يضاعف أعمالهم ويلقى على عواتقهم أعمالا جديدة ترهقهم وتشغل بالهم

أما هـذا الأساس فهو ميل المعلم بفطرته إلى الحرية في العمل وعدم التقيد إلى الحد الأقصى بالقيود الثقيلة ، وميله كذلك إلى تفتح عقلية تلاميذه أولا بأول ، بلا مراعاة لرقابة أو مبالاة بمسئولية

هـذه نظرية خطيرة نشعر جميعا بخطورتها وأهميتها ، ولـكننا لسنا جميعا ميالين إليها اللهم إلا البعض منا ، وهؤلاء هم الذين يصلحون حقا لمزاولة مهنة التعليم والتربية

قد يحل المعلم في أحد فصول الدراسة ، وبخاصة فصول المبتدئين أو الذين يخوضهم في المرتبة ، فيشرع في التدريس وهو يجهل درجة خصوبة الحقل الذى سينمى فيه غرسه ، ثم يمضى في مهمته كالسائر في الظلام لا يميز بين الأشياء ، حتى يتاح له بعد وقت غير قصير وبعد أن يتعود بصره الحلوكة والظلمة : أن يرى الأشياء جملة دون تفصيل

وقد يأخـذ المعلم النابه منذ اللحظة الأولى في التعرف إلى نفسية تلاميذه وعقليتهم ، لـكنه يظل ملازما للخطة التي رسمها له غيره وكأنه تطبيقها على جميع الشخصيات دون إقامة أى وزن للتباين والاختلاف والتفاوت بينها ، وهو في ملازمته لهذه الخطة لا يحيد عنها ، ولا يحب أن يحيد عنها قيد أنملة ، حتى إذا اتضحت له عيوب طريقته ، أخذ يداوى هـذه العيوب من طريق عرفى خادع ثم لا يمت إلى مهنة التعليم بصلة ، حتى يبدو تلاميذه في مظهرهم الطبيعي في حين أنهم ينطوون على معانى أخرى تخالف هذا المظهر ليقول له المشرفون عليه « إنك نجحت نجاحا باهرا » ، وهو النجاح الباهر عنـدهم ، الخداع في نظرنا وفي اعتقادنا ولـكنه لم يفكر لحظة في تفسح حقيقة الطلبة بالخروج معهم عن المألوف في برامجه ليستطيع الوقوف على مقدار تمكنهم من الاستفادة منه

أمثال هؤلاء المعلمين هم الذين لا يصلحون في نظرنا لمهنة التربية والتعليم لفقدان القوة الاستقلالية في نفوسهم وطبيعتهم

ونظن أن المسئولين عن التعليم سيحرمون بنظريتنا ويتمضون ، لأنهم أو أكثرهم لا يحب هذا الاستقلال ، ولأنهم جميعا سيضطرون إلى مضاعفة الجهد لـكثرة ما ينشأ أمامهم من نظريات جديدة نتيجة لاستقلال المعلم ، فيضطرهم هـذا الاستقلال إلى إحداث انقلابات متكررة في طرق التربية ، ولا يخفى ما تستدعى هذه الانقلابات من مجهودات وقوة ابتكار ، بل أن بعضهم يخشى ألا يصلح لمسايرة هذا الأسلوب الحديث ، فتكون النتيجة أن يقال له « أنت لا تصلح للأشراف على التعليم »

(عن أدامس)

نقلها إلى العربية

ع . ط

الفكرة والعادة

قرر علماء النفس أن التفكير فى الشىء يسبق العمل به حتما ، فالعمل الاختيارى إنما يعمل بعد التفكير فيه — فإذا نحن أردنا اعتياد عادة أو العدول عنها وجب النظر فى أساس ذلك وهو الفكر

من القوانين النفسية أن الفكرة إذا عرضت أمام المخ فقبلها ورحب بها زمنا طويلا يأثرت فيه أثرا كبيرا، ثم تحولت إلى عمل ، وإن الفكرة لأول عروضها تؤثر فى المخ أثرا بسيطا وكلما تكررت كبر أثرها وسهل ورودها وأنتجت العمل لا محالة، ثم يصير ذلك عادة بالتكرار

قد ترفض الفكرة لأول مرة ولكن كثرة ورودها على المخ تجعله يقبلها ويعمل على مقتضاها ولنطبق ذلك على الحياة العملية فنقول : —

هب أن شابا مستقيما دعاه مرة رفقة السوء ليشرب معهم، فترى فى ذلك الشاب عند سماع هذا الرأى يرفض الفكرة بتاتا ويقول « لا » علم فيه ، ولكن قد يدعوه رفقاؤه لأن يصحبهم من غير أن يشرب ويزينون له هذا الرأى بما أوتوا من حيل ومهارة، فيرى بعد طول القول وكثرة الإغراء، أن هذا الرأى لا يضره مادام فى عزمه أن يذهب ولا يشرب — وقد يتم ذلك حقيقة فيذهب معهم ولا يشرب ؛ وقد يكرر ذلك ولكنه فى كل ذهاب معهم تقل قوة الممانعة وتأتى فكرة الشرب فى كل مرة فتعمق مجراها فى المخ ولا تزال تضعف قوة المقاومة عنده حتى لا يرى له قدرة على الامتناع فيشرب الكأس الأولى معتقدا أنه يستطيع أن يضرب عن الشرب فى أى وقت شاء ، وهو فى كل مرة يشرب يثبت عادة الشرب إذا به سكير .

ينال العار من عمله ويخسر ماله من المنزلة بين الناس ويضل، ويرغب أن يعود إلى حالته الأولى فتخونه إرادته ، وقد كان عدم البدء فى الشرب وعدم الترحيب بالفكرة أسهل عليه من العدول عنه بعد أن تمكنت العادة من نفسه .

وجود الفكرة فى المخ والترحيب بها معناه إيجاد شعلة فيه فإذا تركها تشتعل ولم يطفئها من وقتها عمت النار المخ كله وذهبت إرادته سدى وضاعت كل مقاومة وتقد قبل الشر — وأما إن رفض الفكرة بادى بدء ولم يسمح لها بالبقاء فى المخ ، فقد أمن من شرها وأمن من تحولها إلى عمل .

وطريق إطفاء هذه الشعلة شيئان : أولها طريقة مباشرة وهى عدم السماح لهذه الفكرة أن تحل بالمخ ونبذها بتاتا وعدم سماعها من محبذها أو يدعوه إليها، ومجانبة من يميل إليها .

والثانى شغل المخ بشىء ينسيه الفكرة الأولى ، فليس أضر على الإنسان من فكر

فارغ وكما يقال « إن الشيطان يسكن حيث يجد المكان فارغا والمحل نظيفا » فالمخ إن لم يشغله جدا اشتغل باللهو .

ومثل ما قلناه عن السكير نقوله عن كل المجرمين الذين اعتادوا أى نوع من الاجرام كالقاتل والسارق ، فالقاتل المتعمد إنما يقتل بعد تمكن الفكرة فى مخه وسماحه لها بالبقاء حتى تملك عليه نفسه وتستحيل إلى عمل .

حكى « الفونس سكيروس » فى كتابه التربية الاستقلالية : أن امرأة عليها سمة الاحتشام والحياء ، دخلت أحد الحوانيت واشترت منه ما أرادت وأخرجت من جيبها ورقة « بنك » قيمتها خمسة جنيهات ، ولكن صراف الحانوت وجد أنها مزورة فبهتت المرأة وأخرجت له أخرى ، ولكنها لم تكن خيرا من الأولى ، فارتاب الرجل فى أمرها وسلمها إلى الشرطة ، وبعد التحقيق تبين أن هذه المرأة خادمة أمينة ، كان عند مخدومها ورقتان مزيفتان وقعتا فى يده اتفاقا فتركهما فى بيته من غير أن يمزقهما ، وكانت الخادمة تدخل الحجرة التى فيها الورقتان كل يوم لتنظفها فتقع عينها عليهما ولا تعبأ بهما ، ولكن تكرر حضورهما فى ذهنها من يوم إلى يوم ، ومن شهر إلى شهر ، حسن لها أخذهما ، فرفضت ذلك فى أول الأمر بتاتا ، وبعد مرة لمستهما بيدها وقبلتهما ثم ردتهما فورا كأن فيها نارا تحرق أصابعها ، وما زال بها هذا الاغراء حتى غلبها وأوقعها فى السرقة »

فالذى أوقع هذه المسكينة فى عملها تلك الفكرة أن ترد على ذهنها كل يوم وتلهب فيه النار من غير إسراع فى إطفائها ، فيجب ملاحظة ذلك وعدم ترديد الفكرة فى المخ حتى لا تتكون العادة

ومما يستوجب الأسف أننا فى السنين الأولى — سنى تكون العادات — لا نكون قد بلغنا حد التفكير الصحيح ولا تكون لنا قوة على التمييز بين الأشياء تمييزا صحيحا واختيار خيرها لنعتاده ، فاذا بلغنا هذه السن وأدركنا عيوبنا وشاهدنا ما نعتاده من عادات سيئة ، صعب علينا العدول عنها لتصلبها ورسوخها وإن كان ذلك ممكنا . ولنضرب لذلك مثلا عادة التدخين وشرب الخمر ، فليس كلاهما جذابا محبوبا بل إن النفس تنفر منهما بطبيعتها لكراهة طعمهما وأضرارهما ، ولكنهما يعرضان للمرء فى أيام طيشه وشبابه عندما يرى بعض من حوله يدخنون ويشربون ، ويحمله الولع بتقليدهم وظنه إن ذلك يزيد فى قدره عندهم على أن يعمل مثل عملهم ، ولو لم يتعودهما حتى نما عقله ونضجت قوة حكمه على الأشياء لندر أن يعتادهما — ومن هذا نعلم مقدار ما يستفيده الانسان إذا رزق مربيا صالحا ، والضرر الجسيم إن هو أهمل أو أصيب بمرب فاسد .

أبو القاسم خليل
رئيس مدرسة كفر كلا الباب